تفسير القدّاس الإلهي

للأب المتوحّد غريغوريوس
الجبل المقدّس ـ آثوس
منشورات دير سيّدة البلمند البطريركي

مدخل:

١ـ العشاء السرّيّ والقدّاس الإلهيّ في العصور المسيحيّة الأولى:

ذات يوم، وأثناء احتفال اليهود بعيد الفصح، أقام ربنا يسوع المسيح، وللمرّة الأولى، سرّ الشكر الإلهيّ، عشاء الفصح بالنسبة إلى الكنيسة. وكان آخر عيد فصح يعيّده الربَّ مع تلاميذه قبل آلامه الطاهرة .
ويكتب الإنجيليّ متّى أنّه في اليوم السابق لعيد الفصح، أي أوّل أيّام الفطير، سأل التلاميذُ الربَّ: " أين تريد أن نعدّ لك لتأكل الفصح؟"، فأجابهم المسيح: "اذهبوا إلى المدينة، إلى فلان، وقولوا له: المعلّم يقول إنّ وقتي قريب، وعندك أصنع الفصح مع تلاميذي. ففعل التلاميذ كما أمرهم يسوع، وأعدّوا الفصح حيث سيعيّدونه مع معلّمهم.
عندما سأل التلاميذ المسيح، أين يعدّون الفصح، كانوا يقصدون بالطبع الفصح اليهوديّ. التلاميذ، كما يقول الذّهبي الفم، "أعدّوا الفصح اليهوديّ، بينما فصحنا، الفصح المسيحيّ أعدّه المسيح. ولم يعدّه المسيح فقط، بل صار نفسه الفصح ."
أثناء العشاء السرّيّ أتمّ المسيح الفصحين معاً، اليهوديّ والمسيحيّ، "الفصح الرمزي وفصح الحقّ"، بالضبط كما يفعل الرسّامون على اللوحة نفسها، حيث يشرعون بتخطيط الظلّ، وبعدها يزيدون عليه الألوان المطلوبة، هكذا فعل المسيح على المائدة نفسها؛ حيث رسم الفصح الرمزي، ثمّ أضاف الفصح الحقيقيّ."
ويصف لنا الإنجيليّون الثلاثة الأول فضلاً عن بولس الرسول، كيف كهن السيّد على العشاء: "أخذ يسوع الخبز وشكر وكسر وأعطى التلاميذ وقال: خذوا كلوا، هذا هو جسدي الذي يُكسر من أجلكم، اصنعوا هذا لذكري. ثم أخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً :اشربوا منه كلكم، هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يهراق من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا. اصنعوا هذا كلّما أكلتم وشربتم لذكري. وأقول لكم إنّي من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا إلى ذلك اليوم حين أشربه معكم جديداً في ملكوت أبي."
وصف العشاء الشكريّ الأوّل هو في الوقت نفسه وصف للاجتماع الشكريّ في العصر الرسوليّ. بالطبع لم يكن المسيح هو الذي يترأس الخدمة بل الرسل القدّيسون، الذين هم الأيقونات الحيّة لمعلّمهم. هكذا كان المسيحيّون الأوائل يعيشون في القدّاس الإلهيّ حضور المسيح وينتظرون عودته المجيدة. وهذا الشعور بحضور المسيح، وانتظار مجيئه الثاني، أضفى على الاجتماعات الشكريّة للمسيحيّين الأوائل مسحة فرح وابتهاج روحيّ."
في العصر الرسوليّ، كانت مائدة المحبّة تسبق سرّ الشكر الإلهيّ. على هذا النحو كان المؤمنون يعيشون سرَّ الشكر كمائدة محبّة، كما كان العشاء السرّيّ عشاء محبّة المسيح اللامتناهية نحو تلاميذه. إلا أنّه، مع الزمن، انفصل سرّ الشكر عن مائدة المحبّة وذلك بسبب بعض الأمور غير اللائقة.
وعندما عمد الرسل القدّيسون إلى توجيه رسائل إلى الكنائس المحليّة، صارت اجتماعات المؤمنين تبدأ بقراءة رسالة. وبعد القراءة كان يجري تبادل "قبلة المحبّة" التي يتحدّث عنها الرسول بولس في نهاية رسائله. وبعدها كان كاهن السرّ يبارك المؤمنين: "نعمة ربّنا يسوع المسيح ومحبّة الله الآب وشركة الروح القدس مع جميعكم."
وكان يلي البركة صلاة الشكر وكلمات الربّ: "خذوا كلوا...اشربوا منه كلكم..." ومن ثمّ الصلاة التي تدعى صلاة استدعاء الروح القدس. والأساس الذي تستند إليه هذه الصلاة هو أقوال المسيح للتلاميذ، مباشرة بعد تأسيسه السرّ: "عندما يأتي المعزّي...فهو يشهد لي...ويذكّركم بما قلته لكم...ذاك يمجّدني". وفي النهاية يفصّل جسد المسيح المقدّس. وبعدها يتمّ تناول جسد الربّ المقدّس ودمه. هكذا كان يجري الاحتفال بسرّ الشكر في العصر الرسولي.

٢ـ الصلوات الليتورجيّة الأولى:

يشكّل القرنان الثاني والثالث بعد المسيح فترة الاضطهادات التي تعرّضت لها الكنيسة، ولدينا من تلك الحقبة بعض الصلوات الليتورجيّة كتلك التي نعثر عليها في "ذيذاخيّة الرسل الاثني عشر" أو في "التقليد الرسولي" للقدّيس هيبوليتس بابا رومية. ويعطينا القدّيس يوستينوس الشهيد أيضاً رسماً لسرّ الشكر، حيث نجد أنّ بعض الحريّة كان يسود في شأن نصّ الصلوات الليتورجيّة. وورد في "الذيذاخيّة": "كان مسموحاً للأنبياء أن يشكروا قدر مشيئتهم" أي كان هناك تلاوة

صلوات عفويّة قدر ما تسمح به طاقتهم. أمّا القدّيس يوستينوس فيحدّد أنّ الكاهن " يرفع أفاشين وصلوات شكريّة على حسب طاقته."
تتطابق بداية هذه الفترة مع الانفصال النّهائي لسرّ الشكر عن عشاء المحبّة. وتعبّر الكنيسة عن عصر الرسل والمعلّمين والأنبياء المواهبيّين، الذين كانوا يجولون على الكنائس المحليّة، إلى عصر الرعاة الدائمين. وكان الاجتماع الشكريّ يقام في الأماكن التي تمّ فيها دفن الشهداء القدّيسين. وفي السنوات الأخيرة من القرن الأوّل الميلادي جرت إضافة "تسبيح الظفر."
ونعثر في "الذيذاخيّة" التي كتبت حوالي سنة ١٠٠ م. على أولى الصلوات الليتورجيّة "في الشكر، اشكروا هكذا: أوّلاً بالنسبة إلى الكأس؛ نشكرك، أبانا، من أجل الكرمة المقدّسة داود صبيّك، التي عرّفتنا بها بصبيّك يسوع؛ لك المجد إلى الدهور. بالنسبة إلى كسر الخبز؛ نشكرك، أبانا من أجل الحياة والمعرفة، التي عرّفتنا بها بصبيّك يسوع؛ لك المجد إلى الدهور...لأنّ لك المجد والقدرة بيسوع المسيح إلى الدهور."
وبعد سلسلة من الصلوات الليتورجيّة، تورد "ذيذاخيّة الرسل الاثني عشر" بعض الجمل التي، ربّما، كانت عبارة عن حوار بين الكاهن والشعب:
الكاهن: لتأتِ النعمة. (وفي كتابة أخرى: ليأتِ المسيح)، وليمضِ العالم إلى غير رجعة.
الشعب: أوصنّا لإله داود.
الكاهن: إذا كان احدهم قدّيساً فليتقدّم، وإذا لم يكن، فليتب. تعال أيّها الربّ يسوع.
الشعب: آمين.
يعطينا القدّيس يوستينوس الشهيد في " دفاعه الأوّل" (وضعه حوالي سنة ١٥٠ م.)، رسمين للقدّاس الإلهيّ في عصره. يبدأ الاجتماع الشكريّ بقراءات من الكتاب المقدّس، وبعدها يعظ الكاهن ويرشد المؤمنين. تلي ذلك الصلوات المشتركة، قبلة المحبة، تقدمة الخبز والخمر، صلوات جديدة للكاهن، والشعب يجيب قائلاً: آمين، ثمّ يجري توزيع وتناول القدسات من كلّ عنصر على حدة، ويقوم الشمامسة بنقلها إلى كلّ من تعذّر حضوره. ويورد القدّيس يوستينوس صلاة استدعاء الروح القدس ويدعوها "صلاة الكلمة."
يتحدّث القدّيس إغناطيوس أسقف أنطاكية عن لاهوت السرّ (رقد حوالي سنة ١١٣ م.) وكذلك القدّيس أيريناوس (١٤٠ - ٢٠٢م.) الا ان الأخير يتناول شكل الصلوات الشكريّة. ويدعو القدّيس إيريناوس صلاة استدعاء الروح القدس "استدعاء الله "أو "كلمة الله."
"في التقليد الرسولي" للقدّيس هيبوليتوس (وضعه حوالي سنة ٢١٧م (.نعثر على الحوار التالي بين الكاهن والشعب:
الكاهن: الربّ مع جميعكم .
الشعب: ومع روحك.
الكاهن: قلوبنا إلى فوق .
الشعب: هي لدى الربّ.
الكاهن: لنشكر الربّ.
الشعب: لحقّ وواجب.

ويلي هذا الحوار صلاة استدعاء الروح القدس :
"نشكرك يا الله، بابنك الحبيب يسوع المسيح، الذي أرسلته إلينا في الأزمنة الأخيرة مخلّصاً وفادياً وملاك مشورة، الكلمة التي من لدنك، الذي به صنعت كلّ شيء...الذي عندما أسلم نفسه طوعاً للآلام، أخذ خبزاً وشكر وقال: خذوا كلوا، هذا هو جسدي، الذي يكسر من أجلكم.
وأيضاً الكأس، قائلاً: هذا هو دمي، المهراق من أجلكم. كلّما صنعتم هذا اصنعوه لذكري.
ونحن، بما أنّنا متذكّرون موته وقيامته، نقدّم لك الخبز والكأس شاكرين إيّاك...
وأهّلنا أنت، كيما ترسل روحك القدّوس على ذبيحة كنيستك المقدّسة الذي وحّدته بك، وامنح جميع القدّيسين المتناولين منها ملء الروح القدس ليقين الايمان في الحقيقة، حتّى نسبّحك ونمجّدك بابنك يسوع المسيح، الذي له المجد والإكرام، لك أيّها الآب والابن والروح القدس، في كنيستك المقدّسة، الآن وإلى دهر الدّاهرين، آمين."
إذاً، يمكننا في هذه الصلاة تمييز الأجزاء الأساسيّة: الحوار، المدخل، أقوال المسيح، التذكار، واستدعاء الروح القدس.

٣- الليتورجيّات الأولى

كتبت الليتورجيّات الأولى في القرن الرابع، نورد أهمّها في ما يلي:

١ـ قدّاس يعقوب أخي الربّ.
٢ـ قدّاس الرسول مرقص.
٣ـ قدّاس باسيليوس الكبير.
٤ـ قدّاس الذهبيّ الفم.
٥ـ قدّاس القدّيس أكليمندوس.
وإلى الآن، تستعمل الكنيسة ثلاثاً من هذه الليتورجيّات الخمس.
قدّاس القدّيس يعقوب، في نقاطه المركزيّة، ذو منشأ رسوليّ. أمّا شكله الحالي فيعود إلى القرن الرابع مع بعض الإضافات اللاحقة. بساطة الألفاظ، قراءات العهد القديم، الطلبات الواردة المتعلقة باضطهادات المسيحيّين، كلّها عناصر تؤكّد قِدَم مصدر هذه الليتورجيا. والتسابيح اللاحقة للقرن الرابع هي "يا كلمة الله، الابن الوحيد"، "التسبيح المثلث تقديسه"، و"التسبيح الشروبيمي". تكوّن قدّاس القدّيس يعقوب في أورشليم، ومن هناك انتشر في كنائس أورثوذكسيّة كثيرة. وكثير من الآباء القدّيسين يشهد بصحّة هذه الليتورجيا، كالقدّيس كيرلّس بطريرك أورشليم) القرن الرابع)، الذي يفصّلها في مقالته الخامسة التعليميّة المستاغوجيّة من دون أن يأتي على ذكر القدّيس يعقوب أخي الربّ. وكذلك يوردها كلّ من القدّيس بروكلوس بطريرك القسطنطينيّة، المجمع المسكوني الخامس (القانون ٣٢). والقدّيس مرقص أسقف أفسس، وغيرهم.
قدّاس القدّيس مرقص هو أقدم قدّاس لكنيسة الإسكندريّة ومصر. يستطيع المرء أن يميّز في النصّ الحالي جملاً تؤكّد مصدرها القديم، وقد حُفظت في الكنيسة المصريّة حتّى القرن الثالث عشر، إلاّ أنّها تعرّضت لإضافات لاحقة أثناء استعمالها.
ينقلنا قدّاس باسيليوس الكبير إلى قيصريّة كبادوكية، ولا بدّ أنّ القدّيس باسيليوس كتب هذه الليتورجيا حين كان كاهناً، لأنّه عندما تحدّث القدّيس غريغوريوس اللاهوتي في كلمته التأبينيّة عن نشاطات القدّيس أثناء تلك الفترة، قال إنّه من بين الأمور العديدة التي قدّمها إلى الكنيسة أفاشين وصلوات وترتيبات للخدمة الكنسيّة.
وعلى يد القديس غريغوريوس اللاهوتي انتقلت ليتورجيا القدّيس باسيليوس إلى القسطنطينيّة، ومن هناك صارت معروفة في الإسكندريّة حيث كان باسيليوس الكبير محبوباً، على نحو خاصّ، منذ أن زارها ليتعرّف إلى السيرة الرهبانيّة.
أمّا قدّاس القدّيس أكليمندوس فنعثر عليه في مؤلّفه "أوامر الرسل القدّيسين". جرت كتابة نصّ هذا القدّاس في القرن الرابع في سوريا حيث نجد فيه معلومات كثيرة عن الليتورجيا في أنطاكية، إلاّ أنّ هذه الليتورجيا لم تستخدم على الإطلاق في الكنيسة.

٤ـ الذّهبيّ الفم والقدّاس الالهيّ

أ ـ القدّيس يوحنّا الذّهبيّ الفم.

وُلد القدّيس يوحنّا سنة ٣٥٤م. في أنطاكية من والدين تقيّين، كان والده قائداً في الجيش، أمّا والدته أنثوسا فتتحدّر من عائلة شريفة. توفّي والده بعد بضعة أشهر من ولادته، فتولّت والدته مهام تنشئته. درس الخطابة والفلسفة في سنّ مبكرة. في تلك الفترة كان القدّيس ملاتيوس أسقفاً على أنطاكية، فسمح لهذا الشاب أن يكون بقربه، "لأنّه أحبّ عذوبة قلبه وموهبته النبويّة وقد تنبّأ بما ستصير إليه مسيرته."
اقتبل يوحنا سرّ المعموديّة المقدّسة في سنّ الثامنة عشرة ودرس على مدى ثلاث سنوات في مدرسة أنطاكية اللاهوتيّة. كان الشوق يعتريه منذ ذلك الحين إلى التماس السكينة، إلا أنّ تضرّعات والدته كانت تقنعه بتأجيل رغبته طالما هي على قيد الحياة. وعندما رقدت بالربّ سنة ٣٧٥م. اتّجه القدّيس يوحنّا بعد رسمه قارئاً إلى الصحراء، حيث بقي مدّة من الزمن تصل إلى ستّ سنوات.
عاش في السنوات الأربع الأولى من نسكه، بالقرب من شيخ ناسك، وفي السنتين اللاحقتين عاش متوحّداً داخل مغارة. ويكتب كاتب سيرته بلاذيوس عن هاتين السنتين " أنّه قضى معظم الوقت دون أن ينام يغرف من الكتاب المقدّس ."
تركت شدّة نسكه بصماتها على صحّته، فاضطرّ إلى العودة إلى انطاكية، حيث سيم سنة ٣٨١م. شمّاساً على يد ملاتيوس، وبعد خمس سنوات سامه القدّيس فلافيانوس كاهناً.
خدم ككاهن في أنطاكية حتّى ٣٩٧م. فكان يعلّم الشعب بعظاته الأخّاذة، فروحنت كلماته الشعب في أوقات عصيبة. ذاع صيته في أنطاكية وسوريا وتوقّع الجميع أنّه سيكون خليفة فلافيانوس على كرسي أنطاكية. إلا أنّه، بعد رقاد بطريرك القسطنطينيّة نكتاريوس، أرشد الله خطاه إلى عاصمة الإمبراطوريّة، فسيم أسقفاً عليها في ١٥ ديسمبر ٣٩٧م.

كانت جهادات كثيرة في انتظاره في القسطنطينيّة ، إذ كانت الوثنيّة لا تزال تُحارب الايمان بالمسيح، والهراطقة (الآريوسيّون، الأفنوميّون، الأبوليناريّون) كانوا يشقّون وحدة الكنيسة، وإكليروس غير واع لرسالته كان سبب عثرة للشعب. عمل القدّيس يوحنّا وسط هذا الجوّ الصعب، وكان يضرب الشرّ أينما وجد بنشاطه وكلماته؛ فعاقب الاكليروس غير الجديرين، ونظّم عمل الكنيسة الروحيّ وقام بأعمال الإحسان، وأوفد مبشّرين إلى غوتثيا وسكيثيا وبلاد فارس وفينيقية، ورتّب خدماً كنسيّة ليليّة ليستطيع العمّال النهاريّون الاشتراك فيها.
وهذا العمل الجبّار، لا سيّما، معاقبة الاكليريكيّين غير الجديرين، خلق له ردّات فعل عنيفة، فلم يتورّع أعداؤه، وعلى رأسهم ثيوفيلوس بطريرك الإسكندريّة وبمساندة الإمبراطورة إفذوكيا، عن بلوغ حدّ إقصاء القدّيس ونفيه. إلا أنّ بقاءه في المنفى لم يتجاوز يوماً واحداً، إذ إنّ مقاومة الشعب مع بلوغ القدّيس منطقة بيثينيا وحدوث واقعة مع إفذوكيا، بعثا الخوف فيها فعمدت إلى الطلب بعودة القدّيس مجدّداً؛ فاستقبله الشعب بالتكريم ودموع الفرح.
ومع ذلك، لم يلبث أعداؤه ساكنين، فشكّلوا مجمعاً في ربيع ٤٠٤ م .وأقرّوا إقصاءه من جديد. ويوم السبت العظيم، عمد منفّذون من قبل الإمبراطور إلى طرد القدّيس يوحنّا والاكليروس من الكنيسة أثناء التحضيرات لعمادة الموعوظين وعيد الفصح. وقعت أمور فظيعة في ذلك اليوم؛ الموعوظون، رجالاً ونساء، تعرّضوا للضرب من قبل الجنود وطردوا عراة من الكنيسة. "امتلأت أجران المعموديّة دماً" كما يقول القدّيس يوحنّا نفسه. وفي النهاية دنِّست القدسات، جسد المسيح ودمه، وفي ٢٠ يوليو ٤٠٤ اقتيد إلى منفاه بعد توديعه الاكليروسَ ولكن خفية عن الشعب. وبعد شقاء كبير، جسدي ونفسي، دام أكثر من ثلاث سنوات، رقد بالربّ في ١٤ سبتمبر من عام ٤٠٧ م. في بثيوندا، بعد تناوله الأسرار الطاهرة ولفظه عبارته الشهيرة: "المجد لله على كلّ شيء."
سنة ٤٣٨ م. جرى رفع رفاته الشريف ونقله إلى القسطنطينيّة، فأودع أوّلاً في كنيسة الرسول توما، ثمّ في كنيسة القدّيسة إيريني حيث وضع على كرسي رئيس الكهنة خلف المائدة المقدّسة فهتف الجميع قائلين: تنعّم أيّها القدّيس بكرسيّك. ثم ّوضعوا رفاته على عربة إمبراطوريّة ونقل إلى كنيسة الرسل القدّيسين، حيث وُضع على كرسي رئيس الكهنة. ويا للعجب، هتف نحو الشعب: السلام لجميعكم."
انتهت مسيرة الدّهبيّ الفم الاستشهاديّة، وانتصرت الحقيقة مرّة أخرى .
والقدّيس، بعد رقاده، يمنح سلام الله للجميع، لمبغضيه ومحبّيه على حدّ سواء.

ب ـ القدّاس الإلهيّ

تقود حياة القدّيس يوحنا الاستشهاديّة خطانا نحو بداية القدّاس الإلهيّ. فالقدّاس الإلهيّ، في الزمن الذي عاش فيه الذهبيّ الفم، كان يبدأ بدخول الأسقف إلى الكنيسة ومنحه الشعب السلام. وكان الشعب يجيبه: ومع روحك. ثمّ كانت تجري تلاوة ثلاث قراءات كتابيّة: قراءة من الأنبياء، وقراءة من الرسائل وأخرى من الإنجيل. وبعدها، كان الأسقف يعظ بكلمة الله. ويلي الوعظ صلوات لأجل الموعوظين ولأجل من تسكنهم الأرواح والمؤمنين الذين حرموا المناولة لفترة معيّنة .
بعد رحيل الموعوظين والمحرومين من المناولة من المؤمنين تغلق أبواب الكنيسة، وتُتلى أفاشين المؤمنين ثمّ تتبعها الدورة الكبرى وقبلة المحبّة. وبعدها تجري خدمة استدعاء الروح القدس: ترتيل نشيد الظفر، أقوال المسيح في العشاء السرّيّ، استدعاء الروح القدس، ثمّ طلبات المؤمنين: "أبانا الذي..."، المناولة، الشكر وحلّ المؤمنين.
عندما عمد الذهبيّ الفم إلى وضع نصّ القدّاس الإلهي، استخدم ـ كما فعل القدّيس باسيليوس الكبير ـ نصوصاً ليتورجيّة قديمة، إلا أنّ بعضها وضعها القدّيس بنفسه. ويورد كاتب سيرته، جاورجيوس بطريرك الإسكندريّة، أنّ الدّهبيّ الفم عمد حين كان موجوداً في بلاد القوقاز في أرمينيا، إلى سيامة سبعة أساقفة وعدد من الكهنة لأجل سدّ حاجات تلك الكنيسة، مسلّماً إيّاهم إقامة سرّ الشكر الإلهيّ."
وفي دراسة لجاورجيوس، أسقف إفذوكياس، حول منشأ "ليتورجيا الذهبيّ الفم" يستخلص "أنّ النواة الأساسيّة لهيكليّة الليتورجيا تتكوّن من مجموعة أفاشين وصلت إلينا في الشكل الذي كان يمارسه الذهبي الفم نفسه لمّا كان أسقفاً على القسطنطينيّة، وتبعاً لمميّزات مضمونها ـ حتّى إلى طريقة إنشائها ـ فإنّ شهادات هذه النصوص تنتمي جليّاً إلى طريقة صياغة الذهبيّ الفم لأعماله."
لقد تعرّضت ليتورجيا الذهبيّ الفم في شكلها الحالي لإضافات لاحقة :بداية مختلفة (القرن الثامن)، النشيد المثلّث تقديسه ودستور الايمان (القرن الخامس)، النشيد "يا كلمة الله الابن الوحيد"، التسبيح الشروبيمي والماء الجاري) القرن السادس)، كما ألغيت القراءة من الأنبياء. وفي القرن الثامن انتقلت خدمة ترتيب الذبيحة إلى ما قبل البدء بالقدّاس الالهيّ.
ليس هناك حاجة للاستفاضة في تاريخ كتابة القدّاس الإلهيّ، فما يهمّ المؤمنين في الدرجة الأولى ليس مسألة من هو المؤلف ومتى جرى تأليف هذا الافشين أو ذاك النشيد في القدّاس الإلهيّ، ما يهمّهم، القلوب الملتهبة حبّاً بالمسيح، وإلى أيّة حقبة انتمت، كانت تعرفه عند "كسر الخبز."

ج ـ الكاهن

الشهادة الأساسيّة حول الذّهبيّ الفم ككاهن، يجدها المرء في مؤلّفاته نفسها. فهو في حديثه عن خدمة الكاهن والمائدة المقدّسة إنّما يكشف بالحقيقة ، عن خبرته الليتورجيّة، عن خبرته المعيشة الحيّة نفسها .

الخادم الحقيقي للقدّاس الإلهيّ إنّما هو المسيح: فهو من كهن سرّ الشكر "في ذاك العشاء السريّ، وهو من يتمّم هذه الأسرار الآن. أمّا نحن الكهنة فلسنا سوى خدّام. من يقدّسها أو يحوّلها إنّما هو المسيح."

والكاهن، إذ ينذر نفسه للمسيح، يصير أداة له، يقف في المكان الذي له .

الكاهن، كما يقول القدّيس غريغوريوس اللاهوتي، يقف مع الملائكة ، يمجّد الله مع رؤساء الملائكة، يرفع الذبائح على المذبح السماوي، يكهن مع المسيح .ويتابع: "أدركْ جيّداً خدّام من نحن، وأين نحن موجودون وإلى أين نرسل البشر." الكاهن موجود على الأرض ويتحرّك في السماء. يقف بين السماء والأرض، بين الله والإنسان: "الكاهن يقف متوسّطاً بين الله والطبيعة البشريّة، يُنزل الاكرامات من هناك إلينا، ويرفع طلباتنا إلى فوق". تتميم سرّ الشكر يضع الكاهن في السماء: "عرش الكهنوت موضوع السموات"، يقول الذهبيّ الفم. لأنّه "عندما يستدعي الكاهن الروح القدس ويتمّم تلك الذبيحة الرهيبة، هو على الدوام وثيق الصلة بسيّد الكلّ، فقل لي أين لي أن أصنّفه؟ وكم من الطهارة والتقوى علينا أن نطالب إنساناً كهذا بهما؟. مطلوب من الكاهن طهارة ملائكيّة حتّى يقوم بخدمته، تلك الخدمة التي لم يأتمنها الله، حتّى للملائكة .

ويصف لنا القدّيس غريغوريوس اللاهوتي، كيف كان القديس باسيليوس الكبير يكهن كما شاهده الملك الهرطوقي يواليس يوم عاد إلى رعيته: "لمّا دخل يواليس إلى الكنيسة تناهى إلى مسمعه صوت الترتيل السماويّ وشاهد الشعب المحتشد وكلّ مظاهر التقوى والورع، قرب الهيكل وحوله، كان منظراً ملائكيّاً لا بشريّاً؛ شاهد باسيليوس الكبير واقفاً تجاه الشعب، كما يصف الكتاب المقدّس صموئيل، مستقيم الوقفة، ثابت النظر وحادق الذهن...ذاته مسمّرة عند الله وفي الهيكل المقدّس، أمّا الذين حوله فقد وقفوا بخوف واحترام."

هكذا يخدم القدّيسون القدّاس الإلهيّ، وهكذا كان يكهن الذهبيّ الفم" عجيبة الأسرار". كان يعيش أمام المائدة المقدّسة سرّ محبّة الله. كان يقتبل المحبّة الإلهيّة من السماء ويمنحها بدوره إلى أولاده على الأرض. وبالتالي فإنّ حياته وكلمته وشهادته هي أفضل تفسير للقدّاس الإلهيّ، لأنّ القدّاس الإلهيّ، أي المسيح، كان حياته،وحياته أيضاً كانت قدّاساً إلهيّاً متواصلاً وشكراً لله لا ينقطع.

٥ـ ماهو القدّاس الإلهيّ

أ ـ القدّاس "استعادة لكلّ التدبير الإلهيّ"

كلّ العظائم والأحداث التي صنعها الله، في سبيل إعادة الإنسان من العصيان إلى البيت الأبويّ، وجعله أحد أخصّائه يدلّل عليها "التدبير الإلهيّ": "إنّ دعوة إلهنا ومخلّصنا المتجدّدة، في شأن تدبيره نحو الإنسان، إنّما هي استدعاء له من السقوط ورفع له من التغرّب الحاصل بالمعصية إلى قامة أخصّاء الله."

وحدث الخلاص بالمسيح، نعيشه في القدّاس الإلهيّ نشكر الله: "الأسرار الرهيبة التي تقام في كلّ اجتماع للمؤمنين والتي بها يُمنح الخلاص لنا بفيض كبير، هذه الأسرار تدعى "شكراً"، لأنّها تتألّف من تذكارات وإحسانات كثيرة وتظهر لنا قمّة العناية الإلهيّة" كما يقول الذهبيّ الفم. القدّاس الإلهيّ هو حياة أسراريّة تُختبر مجدداً وبالتالي فهو استعادة لكلّ التدبير الإلهيّ، لذلك يقول الكاهن في نهاية القدّاس: " أيّها المسيح إلهنا، قد تمّ سرّ الشكر، وانتهى سرّ تدبيرك ."

وانكشف سرّ التدبير الإلهيّ في الوقت عينه الذي حصلت فيه معصية الإنسان. السيّد المحبّ البشر "شاهد على الفور السقوط وعمق الجرح، فأسرع ليوفّر العلاج قبل أن يتوسّع الجرح ويتحوّل إلى مرض لا شفاء منه ...فهو لم يتوقف للحظة واحدة عن عنايته بالإنسان، متحرّكاً في هذا السبيل من تلقاء محبّته". بعظائم مدهشة وأقوال نبويّة هيّأ الله الإنسان ليشترك في ملء الحياة والمحبّة (الإلهيّة .(

وكثيرة هي النبوءات والأحداث في العهد القديم التي تتّصل مباشرة بسرّ الشكر الإلهيّ، وأوّلها تقدمة ملكيصادق للخبز والخمر.

كان ملكيصادق "رمزاً لرئيس الكهنة الحقيقي ـ المسيح ـ وتصويراً له"، وتقدمته عبارة عن تشبّه بتقدمة المسيح.

ملكيصادق "إذ أُنعم عليه بموهبة نبويّة، مجّد الله بخبز وخمر، متشبّهاً بالمسيح المزمع أن يأتي مستقبلاً، طالما أنّه أدرك أنّ ذاك هو من سيقدّم التقدمة المستقبليّة لأجل العالم". بالروح القدس، يعيش ملكيصادق، تلك الأمور المرتقبة يعيشها الآن ويتشبّه بما لم يكن قد تحقق بعد.

أمّا حادثة ذبيحة اسحق فهي أيضاً تصوير سابق لذبيحة المسيح وللتقدمة الشكريّة. وكذلك أيضاً ذبيحة النبيّ إيليا، وأيضاً الرؤيا التي شهدها النبيّ أشعياء تتحرّك ضمن مناخ ليتورجي: الربّ يجلس على العرش محاطاً من السارافيم التي تنشد

التسبيح المثلث تقديسه في الوقت الذي تجري فيه تقدمة ذبيحة البخور، وأيضاً نبوءة لأحد رؤساء الآباء، يعقوب، وأخرى للنبي ملاخي تعودان، حسب آباء الكنيسة، إلى سرّ الشكر الإلهيّ."
غير أنّ الحدث الذي يصوّر سرّ الشكر الإلهيّ بامتياز فهو الفصح اليهوديّ. هذا العيد هو تذكار مستمرّ لخلاص العبرانيّين من المصريّين وشكر مستمرّ لله على إحساناته. فما حصل عندما غادر العبرانيّون مصر، كما يلاحظ الذهبيّ الفم" لأسرار مخيفة ورهيبة، هو على جانب كبير من العمق والأهمّيّة. فإنّها وإن لم تتعدّ أن تكون رموزاً، كانت رهيبة إلى هذا الحدّ، فكم بالأحرى ستكون عليه حقيقة، أي بالنسبة إلى المرموز إليه...أعني الحقيقة نفسها. فنحن نأكل المسيح فصحاً."
كلّ هذه الأحداث هيّأت لحضور ملء الزمان الذي تتكشف به الحقيقة ـ المسيح ـ. وفي الوقت نفسه تتجلّى الأبعاد الحقيقيّة لسرّ التدبير الإلهيّ، فالمسيح هو استعادة كلّ سرّ التدبير الإلهيّ، وكلّ حادثة من حياته هي بركة إلهيّة للإنسان.
في القدّاس الإلهيّ تجري خدمة كلّ أحداث حياة المسيح معاً: "كلّ ما يتمّ إنجازه في الخدمة الإلهيّة هو رمز لآلام المسيح الخلاصيّة ودفنه وقيامته...ولكلّ تدبيره الخلاصيّ الصائر إلينا" على حدّ تعبير الأسقف ثيوذورس .فالكاهن في القدّاس الإلهيّ " إذ يقف أمام المائدة الإلهيّة، يسبّح أعمال يسوع المسيح الإلهيّة الشريفة...ومن ثمّ يكهن الأسرار الإلهيّة ويُحضر أمام ناظرنا كلّ ما قام به من تسبيح قبل حين". تتجلّى حياة المسيح أمامنا لأنّ " كلّ هذه الميستاغوجيّة هي عبارة عن صورة موحّدة لجسم واحد: حياة المسيح."
ويكتب الذهبيّ الفم فيقول: "إنّ كلّ ما لا يُرى يُشاهَد بعين الايمان". فلنسمع إذا هذا المتوشّح بالله الذي شاهد في الليتورجيا الإلهيّة ما لا يُرى .
والمكان الذي يكهن فيه سرّ الشكر إنّما هو بيت لحم: "أسرع إلى بيت لحم (أي إلى الهيكل الشريف) حيث بيت الخبز الروحي". نشترك مع الرسل الاثني عشر بالعشاء في عليّة صهيون: "في القدّاس الإلهيّ يجري تتميم العشاء نفسه الذي كان المسيح الربّ حاضراً فيه. ما من فرق على الإطلاق بين هذا العشاء وذاك. هذا الهيكل الشريف هو العليّة حيث كان التلاميذ والمسيح، ومن هنا خرجوا وانتقلوا إلى جبل الزيتون."
بعدها تغدو المائدة المقدّسة موضع الجمجمة ، الجلجلة الرهيبة: "سرّ الشكر الإلهيّ هذا الذي نقيمه، إنّما هو رمز لذبيحة الجلجلة. وذبيحة المسيح في الجلجثة الرهيبة هي رمز لسرّ الشكر، لأننا نقدّم المسيح نفسه على الدوام". وبعد الجلجلة نبلغ إلى القيامة: "لا يتضمّن سرّ الفصح أكثر ممّا نتمّمه الآن. إنّهما واحد. إنّها نعمة الروح القدس نفسها، التي هي الفصح على الدوام."
وسرّ الشكر هو فصح الكنيسة المستمرّ، هو ابتداء الدهر الجديد الذي يصبّ في الدهر العتيق ويجدّده، إنّه الحضور المواهبي للملكوت الآتي: " وما برحتَ تصنع كلّ شيء حتّى أصعدتنا إلى السماء ووهبتَ لنا ملكك العتيد". لقد منح المسيح الملك العتيد في الوقت الحاضر، وهو يعطينا المقدرة أن نسرع الخطى نحو السماء: "قد جعل الطريق إلى السماء ممكناً سلوكه". وهناك ما يبعث على الرهبة أكثر: يؤهّلنا لنقتبل في داخلنا سيّد السماء.
في القدّاس الإلهيّ هناك ما هو قريب وما هو بعيد، هناك البداية والنهاية، فالقدّاس الإلهيّ هو سرّ المسيح، كما أنّ المسيح هو الألف والياء، الأوّل والآخر، البداية والنهاية، كذلك هو القدّاس الإلهيّ الذي هو التئام الزمان والمكان في المسيح، وتجلّيهما مكاناً وزماناً ليتورجيّين: "فصح الربّ يقدَّم، الأزمنة تجتمع، المسافات تتوحّد وكلمة الله، بينما هي تعلّم المؤمنين، تسرّ. بالكلمة يتمجّد الآب الذي يليق له المجد إلى الدهور. آمين."

ب ـ القدّاس الإلهيّ تجلٍّ للثالوث:
التدبير الإلهيّ كشْف لمحبّة الإله المثلث الأقانيم للإنسان: كلمة الله غدا عامل خلاصنا بذاته، الآب يسرّ بعمل الابن، والروح القدس يشترك في العمل .إنّ التجلّي الإلهي، تجلّي الإله ـ الإنسان بالجسد من العذراء، حاصل بإرادة الآب، وتجسّد الابن، ومشاركة الروح القدس."
سرّ التدبير الإلهيّ هو ظهور إلهيّ ثالوثيّ، وبالتالي فالقدّاس الإلهيّ الذي هو بشكل خاصّ عيش مواهبي للسرّ يُختبر مجدّداً ـ هو أيضاً تجلٍّ إلهيّ ثالوثي. والكاهن في القدّاس الإلهيّ " يكشف لنا النقاب عن الثالوث القدّوس"، كما يقول القدّيس غريغوريوس اللاهوتي.
من البداية إلى النهاية، يساعدنا القدّاس الإلهيّ على عيش سرّ الحضور الثالوثي. يبدأ الكاهن: "مباركة هي مملكة الآب والابن والروح القدس"، لأنّ البشر بتجسّد الربّ أدركوا للمرّة الأولى أنّ الله هو ثلاثة أقانيم. أمّا ما يتمّ في القدّاس الإلهيّ فهو "مقاربة أسراريّة لتجسّد الربّ. وبالتالي فمن الضروري، منذ بداية القدّاس، أن يسطع الثالوث القدّوس ويعتلن."
ويتبع الاعلانات الثالوثيّة، الأنديفونات الثلاث والتسبيح المثلّث تقديسه الذي يسبّح "الثالوث المحيي". وعندما نقترب من مركز السرّ، يقول الكاهن" :نعمة ربّنا يسوع المسيح ومحبّة الله الآب وشركة الروح القدس."

ثمّ نشكر الله على كلّ ما صنعته محبّته من أجلنا: "أنت أبرزتنا من العدم إلى الوجود، ولمّا سقطنا عدت فأقمتنا، وما برحت تصنع كلّ شيء حتّى أصعدتنا إلى السماء ووهبت لنا ملكك العتيد. فمن أجل كلّ ذلك نشكرك أنت وابنك الوحيد وروحك القدّوس على كلّ الاحسانات الواصلة إلينا". بعد الشكر نتوسّل إلى أبي الأنوار أن يرسل المعزّي ليقدّس تقدمة الابن؛ ويأتي المعزّي بصوت منخفض خفيف ليصنع "معجزة الأسرار": يهبنا المسيح وكلّ شيء يمتلئ من نور الألوهة المثلّثة الشموس. وأمّا نحن، ضيوف المحبّة الثالوثيّة، فنتناول جسد المسيح المقدّس ونغدو هيكل الثالوث الكليّ قدسه، لأنّه بينما هو واحد الذي فينا، فإنّنا نتحدّث عن ثالوث. جسد المؤمن يغدو مقام الإله الثالوثي: "المسيح وأبوه والمعزّي مقيم فيه" هذا ما يقوله الذهبي الفم للذي تناول المسيح.
في نهاية القدّاس الإلهيّ، تفيض بالنور النفس الحاملة المسيح الثالوثي: "قد رأينا النور الحقيقي وأخذنا الروح السماويّ ووجدنا الايمان الحقّ، فلنسجدْ للثالوث غير المنفصل لأنّه خلّصنا."

ج ـ القدّاس اجتماع الأرض والسماء

حضور الإله الثالوثي يعطي الاجتماع الشكري أبعاده الحقيقيّة: إنّه اجتماع الأرض والسماء.
المكان الذي فيه يتمّ استدعاء الروح القدس يغدو "مسكن الله مع الناس". الخليقة، مع الإنسان، ترفع التمجيد لله؛ الكلّ يلتئم حوله، "حول المذبح الذي أمام عرش الله". الله، كما يكتب القدّيس ديونيسيوس، الذي هو الحسن الفائق على السموات،...يجمع الكلّ إليه."
الخليقة كلّها تلتئم، وتشكر الله. هذا هو بالضبط القداس الإلهيّ :التئام الكلّ حوله ومسيرتهم نحو ملكوت الإله الثالوثي.
ويسمّي الذهبيّ الفم وآباء قدّيسون كثيرون، القدّاس الإلهيّ : "السير معاً"، وذلك لأنّ الكلّ يسير، الواحد مع الآخر، نحو الله: "لا يلتفتنّ أحد من أولئك الذين يتناولون فصح سرّ الشكر هذا، إلى مصر، بل إلى السماء، إلى أورشليم العلوية."
القدّاس الإلهيّ هو حضور المسيح: "عند اقترابك من المائدة المقدّسة، آمن أنّ ملك الكلّ حاضر هناك". المسيح "الجامع الخليقة قاطبة إلى التئام"، يجمع حول المائدة المقدّسة و"يشدّ الكلّ بعرى وثيقة إلى عنايته، الواحد مع الآخر ومعه هو."
إلى جانب المسيح، هناك السيّدة العذراء، حتّى قبل أن يقيم المسيح عشاءه، فإنّ سرّ خلاصنا قد تحقق في العذراء ـ بقوّة الروح القدس: "صار حشاك مائدة مقدّسة تحوي الخبز السماويّ". في القدّاس الإلهيّ، ملكة السموات هي عن يمين الملك،" لأنّه حيث المسيح...هناك تقف العذراء...لأنّها بالحقيقة عرشه، فحيث يجلس الملك ينتصب عرشه."
العالم الملائكيّ محفل محيط بالمسيح. يسير الربّ نحو الجلجثة" محفوفاً من المراتب الملائكيّة"، وعند التقدمة تعظّم الملائكة معنا صلاح الله.
ويشترك، في القدّاس الإلهيّ، مع القوّات الملائكيّة، "محفل القدّيسين". حول المائدة، إلى جانب المسيح، هناك محفل القدّيسين غير منفصل عنه ."الاجتماع الشكري هو عيد ظفر المسيح، وكلّ الذين ساروا معه يكونون معه في هذه الساعة: "لأنّه كما، عندما ينتصر الملوك، يُكرم ويُمدح كلّ من ساهم في صنع الظفر...هكذا أيضاً هنا: خدمة القدّاس الإلهيّ هي زمن الظفر."
في القدّاس الإلهيّ، الراقدون من إخوتنا حاضرون أيضاً، إخوتنا الذين نطلب لهم رحمة الله. لأنّ ذكرنا إياهم في القدّاس الإلهيّ، هو بالنسبة لنفوسهم "ربح كبير وفائدة عميمة."
هكذا السماء والأرض، الملائكة والبشر، الأحياء والراقدون، الكلّ يعيّد معاً ويشكر الربّ على محبّته. "الأرض والبحر، الأماكن المأهولة وغير المأهولة، الكلّ يرفعون التسبيح إلى الأبد ويشكرون، يحدوهم إلى ذلك شعور الامتنان لأجل الخيرات الإلهيّة التي اقتبلوها". الكلّ يشكر: "للجالس على العرش وللخروف، البركةُ والكرامةُ والمجدُ والسلطانُ إلى أبد الآبدين."

٦ـ ثمار القدّاس الإلهيّ

أ ـ اتحاد المؤمن بجسد المسيح

في سرّ الشكر الإلهيّ، يهب المسيح جسده المقدّس ودمه الكريم إلى الإنسان لكي يصير "شريك جسده ودمه"، المسيح نفسه، في حديثه الأوّل عن السرّ، قال" :من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيّ وأنا فيه."
الإنسان يقتبل في ذاته المسيحَ، والمسيحُ يقتبل الإنسانَ. المسيح هو، في الوقت عينه، البيتُ والساكنُ فيه. في هذا دليل على محبّة المسيح للإنسان. من الضروري أن ندرك، كما يقول الذهبيّ الفم "ماهيّة عجيبة الأسرار. لماذا مُنحت، وما النفع منها": نغدو جسداً واحداً، أعضاء جسده وعظامه هو. ويتابع: "حتّى نغدو جسداً واحداً مع المسيح وحده، لجهة المحبّة؛ ولكن أيضاً من الناحية الجوهريّة، فلنتّحد بجسد المسيح. لأنّ هذا الأمر يتحقق بالغذاء الذي وهبنا إيّاه، راغباً أن يبرز لنا محبّته التي يكنّها لنا". ويخلص إلى القول: "لهذا أتحد نفسه بنا وصار جسداً واحداً معنا، وذلك كي نكون واحداً معه، كما الجسد والرأس. لأنّ هذا هو برهان الذين يحبّون بحرارة."

المؤمن، بالمناولة الإلهيّة، يغدو مع المسيح جسداً واحداً، مزيجاً واحداً، جبلة واحدة. وهذا ليس نظريّاً، "بل هو حقيقي". محبّة المسيح، كما يقول الذهبيّ الفم، لم تكتفِ بحدث التجسّد والآلام والدفن. والربّ يتقدّم ليمنح سرّ الشكر، وذلك كي يصيّر الإنسان مسيحاً. في سرّ الشكر الإلهيّ "يجبل الإنسان نفسه معنا، وليس فقط بالايمان، بل حقيقةً، إذ يجعلنا هو جسده الخاصّ نفسه". وقد سمع الذهبيّ الفم قول المسيح: "لا أرتبط بك هكذا في شكل بسيط، بل أصير مأكلاً، حياكة، قطعاً صغيرة، حتّى تغدو الوحدة أعظم، والخليط أفضل، والحياكة أمتن. لأنّ تلك التي تتّحد تحافظ على حدودها، أمّا أنا فإنّي أنسج معك، أي إنّي لا أشاء أن يفصل بيننا أمر ما. أريد أن يكون الاثنان واحداً. بين المسيح والمؤمن، ما من شيء وسيط، كلّ شيء ذاب وسط نار محبّته: "نحن والمسيح واحد."

وأقوال القدّيسين ليست عبارة عن جمالات أدبيّة غايتها أن تدهش المستمع، بل هي فيض من قلب طفح بحب المسيح، وداخل فيض الحياة والنور هذا، كلّ الإنسان يشعّ ضياء، كلّ أعضائه تنبض حياة، وكذلك العالم حيث يعيش القدّيس، يتحرّك هو أيضاً ويمتلىء من نور المسيح.

بتقدمتنا لله خبزاً وخمراً، انما نقدّم العالم الذي يغدو سرّ شكر" :عندما يقتبل كلمة الله، كلٌّ من كأس الخمر قبل مزجه بالماء والخبز المصنوع، أي عند استدعاء الروح القدس، تصير هذه العناصر إفخارستيّا، أي سرّ شكر، وبمعنى آخر جسد المسيح ودمه". بانحدار الروح القدس "علينا وعلى هذه القرابين الموضوعة"، يتقدّس الإنسان ويغدو مسيحاً، والخليقة تتقدّس وتتجدّد. يغدو الإنسان، بالنعمة، مسيحاً والعالم يصبح "بيت الله". ويغدو السّر "البوّابة" التي منها يدخل المسيح إلى الإنسان والعالم: "هذا الطريق، طريق الأسرار المقدّسة، أطلعه لنا المسيح بحضوره إلينا، وهذه "البوّابة" انفتحت بدخوله إلى العالم. ولمّا صعد إلى الآب، لم يقبل أن يغلق هذه البوّابة، فقد تنازل من حضن أبيه، وعبر هذه البوّابة، ليفتقد البشر."

في احتفال الافخارستيّا القياميّ، أيّ القدّاس الإلهيّ، كلّ شيء يتجدّد: والعالم يقتبل من جديد بركة الله، والإنسان نفسه يغدو مسيحاً. على هذا النحو نحيا تدشين الدهر الجديد وبدايته .إنّما بداية اليوم الأخير، عندما سيأتي السيّد "ويحيط به محفل العبيد الصالحين، فيضيئون أيضاً كما يضيء ذاك". الإله ـ الإنسان سيكون عندئذ "إلهاً بين آلهة. جمال الجمال وقمّة الاحتفال."

ب ـ التئام الكنيسة

وعندما يجتمع المؤمنون في مكان معيّن وفي وقت محدّد لإقامة سرّ الشكر، فإنّ اجتماعهم هذا يُظهر سرّ الكنيسة.

الكنيسة وسرّ الشكر هما جسد المسيح، المسيح نفسه. ومن خلال اتّحادنا بالكنيسة "قد جعلنا المسيح جسداً خاصّاً به هو، ومن خلال سرّ الشكر وهبنا جسده الخاصّ."

العشاء السريّ هو البداية التاريخيّة لسرّ الشكر وللكنيسة معاً. في عشاء المسيح تسود ذبيحته على الصليب. وبالضبط، فإنّ ذبيحة الربّ على الصليب، أي محبّته الإلهيّة التي تبلغ "إلى المنتهى"، هي الأساس الذي عليه تُبنى الكنيسة. الدم والماء اللذان خرجا من جنب السيّد عندما طعنه أحد الجنود بالحربة، هما رمز لسرّيّ المعموديّة المقدّسة والقدّاس الإلهيّ. من هذين السرين تولد الكنيسة: "وخرج من جنبه دم وماء". لا تتهاون بالسرّ، أيّها الحبيب، فإنّ عندي سرّاً آخر أفصح عنه، اعني بذلك رمز المعموديّة والأسرار (أي سرّ الشكر). منهما تولد الكنيسة: "خرج دم وماء"، هنا بداية الأسرار."

تولد الكنيسة من المسيح وتتغذّى منه: "أولئك الذين ولدهم المسيح ـ في سرّ المعموديّة ـ يغذّيهم هو من نفسه". هذا الغذاء الإلهيّ يبني الكنيسة ويبرزها جسد المسيح: "بجسد المسيح نتغذّى نحن المؤمنين، وبه نصير واحداً. وقد صرنا جسد المسيح الواحد وبشرته الواحدة". ويكتب بولس الرسول: "فإنّنا نحن الكثيرين خبز واحد، جسد واحد لأنّنا جميعنا نشترك في الخبز الواحد". الكثيرون، بالخبز الواحد، المسيح، يؤلّفون جسداً واحداً هو الكنيسة. هكذا، فإنّ كلّ اجتماع شكريّ هو اجتماع الكنيسة قاطبة، لأنّ سرّ الشكر هو سرّ المسيح.

المسيح، بتجسّده "حمل على ذاته جسد الكنيسة" و"حضر إلى بيتها الخاص، فوجدها غير طاهرة، عارية، مضرّجة بالدماء، فغسلها (بالمعموديّة المقدّسة)، وغذّاها) بالمناولة المقدّسة)، وألبسها رداءً لا مثيل له: هو نفسه غدا حلة الكنيسة وأخذ بيدها ورفعها إلى العلى"، ويقودها إلى الملك السماويّ حيث يجري القدّاس الإلهيّ.